

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه إلى يوم الدين ..

أخانا في الله هل نقدم لك أستاذنا الجليل رحمه الله ورضي عنه وأرضاه أم نترك ذلك لما بين يديك من كلماته الوضيئة التي يتناولها في شفافية أخاذة وروحية آسرة وعقلية واعية مُدركة وعبرة مشرقة تعيها أذن واعية وتستنير بها قلوب مؤمنة وتأنس بها نفوس أسقمها البُعد ونأى بها تطاولها عن القصد .

وكيف لا .. وعمدته القرآن « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » .

أستاذنا هذا (فيما أحسب ولا أزكى على الله أحدا) ...

عبدٌ أخلص العبودية لله والإيمان به واليقين فيما وعد به عباده من حسن الجزاء والثواب إذا استجابوا له ومن سوء الجزاء والعقاب إذا أعرضوا عنه فأفاض عليه من فيض قوله تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » ومن قول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما ورد عنه (من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم) .

وهذه الرسائل قلّ من كُثر مما أفاض الله على شيخنا من فتوحات ربانية وإشراقات محمدية في تزكية النفس البشرية .

نسأل الله أن يهديني وإياك التوفيق والعيش في جو هذه الرسائل الروحية سلوكا وإيمانا .

وما توفيقى إلا بالله

والسلام عليكم ورحمة الله

فتح الله حمودة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فى الإيثار

وَجَّهْ أَحَدُ الإِخْوَانِ إِلَى مَوْلَانَا وَشَيْخِنَا رَضَى اللَّهُ عَنْهُ وَرَحِمَهُ السَّوَالُ
الآتَى :

كَيْفَ يَتَعَلَّمُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ ؟ وَكَيْفَ يَتَعَلَّمُ أَنْ
يُؤْثِرَهُ عَلَى نَفْسِهِ ؟ فَأَجَابَ رَضَى اللَّهُ عَنْهُ .

أَخَى :

تَلَقَيْتَ خُطَابَكَ شَاكِرًا رَبِّي نِعْمَةً وَأَفْضَالَهَا ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا
تُحْصُوهَا ﴾

فحياة الإنسان كلها مشحونة بالنعم ، مليئة بالأفضال ، ولكن النعم
حينما تكون اعتيادية لا يشعُر بها المنعم عليه إلا المؤمن المتَّصلُ بالله / ولأنها
كثيرة ذكر الله المنعم تعذّر حصرها ، فمن نظر إليها بعين الله أدرك ذلك لا
محالة ، ومن نظر إليها بعين نفسه حصرها استقلالاً ، وربما غفل عن الموجود
جريباً وراء المعدوم ، فاعلم أخى أن مجرد العلم بالسبب لا يأتى بالمراد فإن العلم
بالشئ أسهل من العمل به ، والعمل به من حيث هو عمل ميسور سهل ولكن
توحيد الله فى العمل أصعب من الصَّعب والتوحيدُ معناه الإخلاصُ فى القصدِ
به وحبُّ الله وحده ، والمشكلة الكبرى تدور حول هذا القصد .

قد يكون العمل لله والمقصود بذلك الأجر والثواب ، وقد يكون لله
والمراد به مرضاته وحده سواء أكان الأجر لك أو عليك / وهناك وجه آخر
وهو العمل حباً فى العمل وحباً لما يحب الله سواء أكان له أجر أو لم يكن له أجر

دون نظر إلى ما ينتظر منه . ولك أن تقول : الإخلاص معناه : العمل مع إغفال النظر إلى ذلك العمل بحيث يكون الله شغله الأكبر وعمله المراد . ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ .

وأحب أن أقول لأخي : إن التخلّى بصفات الخير لا يكون إلا بالعلم ؛ فالعلم بالخير والشر هو الأساس فإن علمت فالترم ، والالتزام لا يكون إلا بالتصديق ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، الإيمان بالله هو أساس العمل ، وإن هذا الإيمان ينمو ويزيد ويخيا على قدر ذكر العبد لربه وإخلاصه في ذكره وصيّدقه في إخلاصه كما وضحت سابقاً ، وكلما نما وزاد ، ازداد العبد فعلاً للخير وسهل عليه ما كان يصعب عليه من قبل . فإن زيادة الإيمان في القلب كزيادة الضوء في المصباح ، والنور في الضوء وعلى قدر اتساع الضوء وانتشاره يكون الكشف للظلمات . فكذلك الإيمان يكشف ظلمات النفس ويظهر مكاييد الشيطان وحيله . ومتى ما أدرك العبد ذلك سهل عليه العلاج ﴿ وَتيسر عليه الطلب ﴾ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ .

وفوق كل ذي علم عليم فالحمد لله .

تسألني يا أخي كيف أتعلّم الإيثار ؟ وكيف أحب للناس ما أحب لنفسي ؟

وعليه أقول : إن الزهد في الدنيا هو أساس هذا الشعور وأساس هذا العلم ، فالزهد ليس معناه الترك كلاً . إنما معناه النظر إلى الدنيا وما فيها بعين الزوال والفناء . والنظر إلى متاعها وحطامها على أنه وسيلة ومطية . فينظر إليها كما ينظر إلى العملة يقضي بها مصالحه يدفع الجنيه أو العشرة إلى صاحب السلعة راضية بها نفسه مطمئناً بها قلبه حيث المراد بها غيرها لا ذات العملة فالمال النقدي حبيب إلى النفس ؛ ولكنها تجود به لما هو أحب إليها منه ، فكذلك المؤمن الزاهد يبذل ما في يده ، ويزهد ما عنده ويتنازل عن حقه المعلوم للجزاء المرتقب وللسلعة الغالية التي يرجوها بالغالى الفانى « ألا إن سلعة الله غالية ،

ألا إن سلعته الجنة .

فإن من لم يزهد المال لم يتصدق ، ومن لم يزهد الوقت لم يتعبد ، ومن لم يزهد الملذات فلن يجد حلاوة الإيمان ، ومن لم يزهد الجهل فلن يتعلم ، ومن لم يزهد الدنيا فلن يسعى إلى الآخرة ، ومن لم يزهد أنانيته البشرية فلن يتحقق بالعبودية ، ومن لم يزهد ما يراه حقاً له فلن يؤثر أخاه ، ومن لم يعرف ربه بصفاته وأسمائه الحسنی فلن يحب للناس ما يحبه لنفسه . فإذا أردت أن تتعلم الإيثار على النفس فتعلم أولاً إيثار الآخرة على الدنيا ، وإيثار الغائب الحق على المشاهد الملموس ، وتعلم إيثار أمر الله على هوى نفسك ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ .

وأرجو أن تبدأ في ذلك بأحبائك وأقرب الناس إليك ، فإن هؤلاء مدرستك الصغرى ، وعليهم وفيهم يكون التعلم والتكيف . ومتى نجحت في هذه المدرسة انتقلت إلى غيرها . فإن الإيثار لا يكلفك أكثر من جهاد ساعة من الوقت .

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حب الرضاع وإن تطفمه ينظم إنك لو جاهدت نفسك في ساعة الحاجة إليها بلغت مرادك . والحاجة المقصودة منك لا تتجاوز الفائض عنك سواء أكان مალًا أو وقتاً . ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾ أما الشيء الذى لا تستطيع الغنى عنه فلا يطالبك الشرع ببذله ولا التخلي عنه . فابدأ بنفسك ثم بمن تعول . فالإيثار يدور حول الفائض وكل ما يمكنك الاستغناء عنه . ولا يكون افتقارك إليه شغلًا وعملاً فهو فائض مثل الطعام الذى تخرج به إلى ضيفك ومثل القديم من الثياب الذى يمكنك الغنى عنه ، ومثل العطاء اليسير الذى لا يرهق ميزانيتك ، ومثل المجاملة الواجبة التى تقطع بعض وقتك ، ومثل البشاشة وطلاقة الوجه حينما تقابل من تحب والأمثلة كثيرة .

فمن أراد أن يتعلم كيف يؤثر أخاه على نفسه ، فليعلم أولاً أن الإيثار

درجات . أعلاها الإيثار المطلق . وأدناها الإيثار المحدود .

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

فالإيثار المطلق يسبقه الحب للمؤثر. ويسبقه الإيمان بالله المالك للشيء المراد إيثاره به قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ... ﴾ الآية : فانظر أخى إلى معنى هذه الآية الكريمة وتدبر ما فيها تجد الجواب على سؤالك حيث لا بد من الأخذ بالترتيب بمقتضى الآية . وفوق كل ذى علم عليم . فوالله إني إذا تعرضت لتفسيرها وتناولت شرح ما فيها لخرجت بك إلى بحر عميق وربما خرجت من موضوع السؤال إلى ما لبنا في حاجة إليه في هذا الوقت ، فإن حاجتنا تدور حول المقام الأول في الإيثار : الإيثار الذى يسعنا تربية النفس به تدريجياً هو الإيثار المحدود . الإيثار الفائض عن الحاجة كما قلت من بذل المطبوخ وتقديم المأكول ، والتضحية باليسير من الوقت والمال ، وحب الخير العام للناس عامة سواء أكان بالمعونة أو التمنى في حالة العجز والفقر . وذلك أضعف الإيمان . فلا بأس أن نأخذ بالمستطاع حتى يبلغ الله بنا ما هو أعلى وأسمى .

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

اعلم أخى أن من أراد أن يتعلم الإيثار ، وأن يحب للناس ما يحبه لنفسه . فعليه أولاً الأخذ بأسباب القرب إلى ربه سبحانه وذلك بشحن الفراغ . وملء الوقت بذكره وتسبيحه بحيث يكون الذكر همته والتسبيح شغله فهذا هو المراد . وهذا هو التعلّم الذى ورد فى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فإن من سلك طريق القرب والعلم بالله أدرك بنفسه ما لهُ وما عليه . وتهياً له من قلبه واعظ الحق ﴿ إِنَّهُمْ قِتِيَّةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ ففى

قلب كل مؤمن واعظ من الله . وحينما يكون الانبعاث من المصدر ، والأمر من الداخل يكون التأثير قوياً والاندفاع اضطراراً . مثل المريض في تجرعه الدواء المرّ وفي تعرضه للخطر الذي يرجو به زوال علته عن نفسه . فلو لم يكن الانبعاث الداخلي نتيجة إحساسه بالمرض وحاجته إلى الشفاء لما تناولهما يكره وهو يشعر بالمرارة والحرارة . وهكذا يكون حال المؤمن السالك إلى أن يبلغ الله به ما تقرر له من الاتصاف بالخير ، والانشراح بالشرع . « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » أو كما قال .

وإن هذا الطريق إلى الخير أقوى في نظري من ألف واعظ ومذكر وألف معلم ومرشد ، لأن وظيفتهم تنحصر في التذكير . ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدُّعَا تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فمن لم يكن مؤمناً بالشئ لا يتنفع بذكره ، ومن لم يكن مؤمناً بالمذكور كذلك . وللمثل والتوضيح أقول : إذا ذكرت المُنْحَنَتَ بجمال المرأة وزينتها فهل يجد لما تقول طعماً أو يشعر بلذّة القول ؟ فلا إقدام ولا تحرك ، ولا انتفاع ولا هم . فكذلك المنحرف عن طريق الله الغافل عن ذكر المعبود . ومن هنا نعلم لماذا يكون التأثير على النفوس حين يكون الوعظ والتذكير ثم لا يكون الاتعاظ بعد الفراغ من الوقت . فالرجل في المسجد غيره في الحانوت ، والمسلم في مجلس الوعظ غيره في المكتب والمصنع والبيت والطريق ، وربما يشهد الجنازة ، ويصحب الميت المحمول فترة من الوقت . وكله تأثير وتأثر وبكاء ونحيب ثم نراه يعود بعد ذلك إلى أهله كأن لم يكن شئ ! لماذا؟؟

لأن الغفلة مستحوذة عليه ، ولأن الاتجاه معكوس ، والهدف الذي يعيش به وعليه أقوى في نفسه من أى شئ آخر . فلو كان السلوك صحيحاً ما غاب ولا احتجب ولكن هيهات هيهات !

أخى : إن من أراد أن يتعلم الإيثار وأن يحب لغيره ما يحب لنفسه فلينظر إلى الدنيا ومقومات الحياة فيها كما ينظر إلى الأرض ، يطأ عليها الحابل والنابل والرفيع والوضيع ، والمسلم والكافر . لكل منهم جزء مقسوم . فلا يضرك أن يمر أمام بيتك من يمر ممن تحب أو لا تحب من الناس . ولا يشغلك مرور الكافر

سواء أكان راكباً أم راجلاً . فى الأرض أو فى الجو . فإن المنع اعتداء .
والتعرض شقاء ~~فالنفس~~ قد تضيق ~~بـ~~ ولكن الشعور بالواجب الإنسانى العام ،
وبالحق المكتسب له يردُّ النَّفْس ويُرغمها على قبول الواقع . فكَذلك المؤمن فى
أول أمره ، يتناول علاج الشَّحِّ فى نفسه بهذا اللون من الأسباب وبهذا الشكل
من القياس . ثم يتدرج فينظر إلى الدنيا وأسباب الحياة فيها كما ينظر إلى المائدة
والطعام يقدمه للضيف . فإن الإحساس بالواجب يحمله على هذا . فتارة يكون
الدافع إليه ما سبق ، وتارة أخرى يكون الدافع حب المُخْرَج إليه والمقدم له
الطعام . وفى كلتا الحالتين يستفيد الغير من مائدته ويقع الإيثار طوعاً أو
كرهاً .

وشأن المؤمن فى حياته أن يندفع إلى إيثار الغير وإيقاع النفع له فى كل ما
يتعلق بالحياة على قدر استطاعته طوعاً أو كرهاً . تارة بالاختيار . وتارة
بالاضطرار حيث لا مفر من ذلك ما دامت الحياة مشتركة ، وما دامت
المسئولية قائمة ، ومادام الإيمان والتصديق . فكما تدين تدان . وللعلم أقول إن
الاعتراف بروح الله الذى نفخه فى الإنسان يترتب عليه تقدير هذا الجانب
مهما كان المنفوخ فيه . فإنه لو لم يكن جديراً بذلك لما كان . وقد تكفل الله
برزقه العام والخاص لأنه خلقه وسواه . ونفخ فيه من رُوحه تكريماً وتمييزاً .
فكيف يحقِّق ذلك من لا قدرة له على شىء . والأدب مع الله وحده يكفى
مراعاته ويغنى عن مجادلته ويلزم الخضوع الذى لا مفر منه ، وفى هذه الحالة
يبدو الإيثار واضحاً جلياً ، وحب الخير للغير ناصباً لامعاً لا محيص عنه .

أخى : سألتنى فى خطابك كيف يتعلم المؤمن الإيثار ؟ وعليه أوجز الجواب
فأقول لك تلخيصاً لكل ما مرّ وتركيزاً لكل ما مضى من معانٍ :

كلّما بدا لك أمر وظهر لك حال سواء أكان مع نفسك أم مع غيرك .
استشعر مراقبة الله لك . وانظر إلى مُرادِه منك . وبمقتضى هذا الشعور مضافاً إليه
العلم بالمراد . اعملْ واترك . واعلم مقدّماً أن الشيطان سيقف فى سبيلك .
والنفس التى بين جنبيك ستعترضك وتشاقل عليك . فاجتهد فى مخالفتها .
مُيَمِّماً شطرك نحو المراد منك مستعيناً بالله ربّى وربّك . فإن بلغت المراد فاحمد

الله . وإن لم فاستغفر الله لتقصيرك وقصورك . وهكذا دواليك المرة تلو المرة حتى يبلغ الله بك ما يحبّه ويرضاه لك ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

واعلم أخى أنه بهذا اللون من الشّعور ، ويمثل هذا النوع من الفهم والإدراك يكون التحقيق تدريجاً . فاذكر الله يذكرك . واشكّره يزدك .

واعلم أخى أن هذا هو الجواب المقتضب لسؤالك فإن من أراد أن يبلغ مُراداً ويحقق أمراً فعليه أولاً تحديد الهدف في نفسه . وتخصيص الغاية بالأهمية بحيث يكون الشُّغل بها والفكر عليها . فإن تَمَّ ذلك تجمعت الأسباب في القلب ، وتظاهر الحق بالقوة الربّانية والمراد السماوى . فالحق أبلج^(١) والباطل لجلج^(٢) ، والحق نور ، والباطل ظلام . والحق أنى قدفته على الباطل دَمغه وقضى عليه ، فاتّق الله يُعَنَّكَ ، واعبده يتولّك . ولا تقبل على شىء قط تريد عمله إلا إذا كنت مستعينا بالله سواء أكان ذلك من أعمال الدنيا أم من أعمال الآخرة . وإياك إياك الاستعانة بنفسك فإنّها عدوّ مبين . وانخسها خشيتك من أعدى أعدائك . واحذرّها حذرک من النار . وتَحَايَلْ عليها محابلة الحدّاد على الحديد يصنعه ويذيه . وغُضْ طرفك من خطرّها وهواها . فالنفس أشدّ خطراً على صاحبها من غيرها . ولولا رحمة الله ما نجا منها أحد . فيارب سَلِّمْ سَلِّمْ . ﴿ وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ فالحمد لله على السلامة .

* * * *

(١) مضى مشرق .

(٢) يتردّد من غير نفاذ . والمراد لا يصل بك إلى غاية لضعفه .